مجلة اللغة العربية والعلوم الإسلامية العدد (2) – يونيو 2022م
الترقيم الدولي للنسخة المطبوعة: 2812-541X الترقيم الدولي للنسخة الإلكترونية: 2812-5428
الموقع الإلكتروني: https://jlais.journals.ekb.eg

انتهاك حرمات المساجد والموتى في القرنين الأول والثاني الهجريين/السابع والثامن الميلاديين (عرض وتأصيل وتقييم)

أ. د/ سحر السيد عبدالعزيز سالم

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية

كلية الآداب- جامعة الإسكندرية

Journal of Arabic Language and Islamic Sciences Vol (2) – June 2022

Printed ISSN :2812-541X On Line ISSN : 2812-5428

Website : https://jlais.journals.ekb.eg/

انتهاك حرمات المساجد والموتى في القرنين الأول والثاني الهجريين/السابع والثامن الميلاديين

(عرض وتأصيل وتقييم)

أ. د/ سحر السيد عبدالعزيز سالم

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية

كلية الآداب– جامعة الإسكندرية

ملخص البحث:

يتناول موضوع البحث دراسة حرمة المساجد في الإسلام بالإضافة إلى حرمة انتهاك حرمات الموتى والمقابر، حيث حرص الإسلام على احترام الموتى وعدم التطلع إلى عوراتهم أو أذيتهم جسديا من خلال المشي على قبورهم أو تكسير عظامهم أو نبش قبورهم، إلا أنه تطالعنا بعض صفحات المصادر الإسلامية، أخبارًا وهي وإن كانت قليلة ونادرة، ومتناثرة، هنا وهناك بين ثنايا السطو، عن حدوث انتهاكات لحرمات بيوت الله وقبور موتى المسلمين وجبَّاناتهم خلال الصراعات السياسية والمذهبية المختلفة التي تلت وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وهذا يدل بلا شك على انحراف في مسار البعض، عن قيم وتعاليم وجوهر الإسلام، وأصبحت في الوقت نفسه فرصة سانحة أمام أعداء الإسلام يلتقطونها للنيل من الدين نفسه، وتسعى هذه الدراسة الموجزة إلى تقديم أبرز الأمثلة عن بعض مظاهر هذه الانتهاكات بحق حرمة وقدسية المساجد وبيوت الله ومراقد الموتى والجبانات أيضًا، مع تأصيل لبداية هذه الظاهرة الممقوتة والمنهي عنها دينيًا، خلال القرنين الأول والثاني الهجريين/ السابع والثامن الميلاديين وهما القرنان اللذان يمثلان المرحلة التأسيسية الأولى للحضارة الإسلامية.

الكلمات المفتاحية:

المساجد– حرمات المساجد والموتى– القرن الأول والثاني الهجريين– القرن السابع والثامن الميلاديين.

Abstract

The topic of this research deals with the study of the sanctity and sanctification of mosques in Islam, in addition to the sanctity of violating the sanctities of the dead and cemeteries, where Islam was keen to respect the dead and not look at their nakedness or physically harm them by walking on their graves or breaking their bones or exhuming their graves, but we look at some pages of Islamic sources News, albeit few and rare, and scattered, here and there between the lines, about violations of the sanctities of the houses of God and the graves of the dead of Muslims and their cemeteries during the various political and sectarian conflicts that followed the death of the Messenger (peace and blessings of God be upon him), This undoubtedly indicates a deviation in the path of some, from the values, teachings, and essence of Islam, and at the same time it has become an opportunity for the enemies of Islam to seize on to undermine the religion itself. And cemeteries and cemeteries as well, with the rooting for the beginning of this reprehensible and religiously forbidden phenomenon, during the first and second centuries AH / seventh and eighth AD, which are the two centuries that represent the first foundational phase of Islamic civilization.

Key Words:
Mosques - Sanctuaries of Mosques and the Dead - First and Second Centuries Hijri - Seventh and Eighth Centuries A.D.

تشير كلمات النبي (صلى الله عليه وسلم) التي قال بمقتضاها : إن كل من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن [1]، إلى حرمة وقدسية المساجد في الإسلام. وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد وضع أسسًا وآدابًا وسلوكيات، تتعلق بشروط وأحكام المسلمين مع بيوت الله ، فعلى من يدخل المساجد الالتزام بمعايير سلوكية معينة منها أن يؤدي صلاة ركعتين أولًا ، قبل جلوسه تحية المسجد، وأن عليه التقيد بالسكينة والخشوع وعدم رفع الصوت عند الحديث [2]، والحرص على نظافة وطهارة وتطييب بيت الله، عملًا بالآية القرآنية الكريمة (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) [3] كما أن هناك معايير وأساليب لجلوس المصليين فيها باحترام وورع . وفيما يتعلق بالجبانات ومقابر موتى المسلمين فقد كانت أيضًا ذات حرمة في الإسلام ، الذي حرص على احترام الموتى ، فلا يجوز التطلع على عورات الميت ، ولا أن يؤذيه جسديًا أو التعدي عليه ولا المشي على قبره ، ولا كسر عظامه طبقًا لما ورد في بعض الأحاديث النبوية الشريفة ، أما عن نبش القبور فلا يجوز دينيًا إلا لعذر شرعي. *

غير أننا لم نلبث أن طالعنا في صفحات المصادر الإسلامية أخبارًا وهى وإن كانت قليلة ونادرة، ومتناثرة، هنا وهناك بين ثنايا السطور، عن حدوث انتهاكات لحرمات بيوت الله وقبور موتى المسلمين وجباناتهم خلال الصراعات السياسية والمذهبية المختلفة التي تلت وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهذا يدل بلا شك على انحراف في مسار البعض، عن قيم وتعاليم وجوهر الإسلام ، كما ورد في القرآن الكريم وبشر به الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

وهذه الأخبار على قلتها، إلا أنها أصبحت فرصة سانحة أمام أعداء الإسلام يلتقطونها للنيل من الدين نفسه، وهذا يتنافى مع منهج التفكير العلمي السليم ، فلا يجوز أن نحكم على الأديان، من خلال ممارسات بعض أتباعها المخطئين ، وكما ينطبق هذا على الدين الإسلامي، فهو ينطبق أيضًا على الديانات السماوية الأخرى ، فليست اليهودية هي الصهيونية، ولا الماسونية، وليست المسيحية دين السلام ، هي

الحروب الصليبية ، ولعل ما قدمه كل من الدكتور عبد الوهاب المسيري[4] والدكتور قاسم عبده قاسم [5] في كتاباتهم القيمة ، ما يؤكد على ذلك .

كذلك أصبحت هذه الأمثلة النادرة بمثابة سابقة فيما تلا ذلك من عصور حتى عصرنا الحديث، الذى تكررت فيه حوادث تفجير بعض المساجد والحسينيات بمن فيها من مصلين .

وسنحاول في هذه الدراسة الموجزة ، تقديم أبرز الأمثلة عن بعض مظاهر هذه الانتهاكات بحق حرمة وقدسية المساجد وبيوت الله ومراقد الموتى والجبانات أيضًا ، مع تأصيل لبداية هذه الظاهرة الممقوتة والمنهى عنها دينيًا ، خلال القرنين الأول والثاني الهجريين / السابع والثامن الميلاديين وهما القرنان اللذان يمثلان المرحلة التأسيسية الأولى التي لم تكن الحضارة الإسلامية قد تشكلت في صورتها النهائية فيهما بعد .

تمثلت بدايات خرق هذه القيمة الإسلامية ، الكبرى الداعية إلى ضرورة احترام حرمة المسجد فيما قام به رجل فارسي الأصل حاقد على الإسلام ، ونعني به أبو لؤلؤة فيروز المجوسي [6] قاتل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، فقد طُعِن الخليفة عمر في مسجد النبي بالمدينة المنورة في 26 ذي الحجة 23 هـ / 644 م ، بعد أن كمن له [7] أبو لؤلؤة في المسجد ومعه سكين ذات طرف مسمومة ، وذلك عندما وقف الخليفة يعدّل الصفوف ثم أخذ يكبر ليصلي بالناس ، فطعنه أبو لؤلؤة في كتفه وخاصرته ، كما أخذ يطعن في طريقة ، المصلين ، فطعن ثلاثة عشر رجلًا ، مات منهم سبعة .

كانت هذه الجريمة الشنعاء بمثابة السابقة التي احتذى بها الخوارج الذين لم يتورعوا عن ارتكاب جرائمهم في المساجد في عصر الخلافة الراشدة والعصر الأموي أيضًا فاتفقوا على قتل كل من الخليفة على بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص في أثناء الصلاة ، فقام عبد الرحمن بن ملجم بطعن الخليفة على بن أبي طالب كرم الله وجهه [8] في سنة 40 هـ / 661 م وهو مقبل ليؤدي صلاة

الغداة، فقد كان علي ، يخرج كل غداة [9] أول الأذان ليوقظ الناس للصلاة ، وكان ابن ملجم مارًا بمسجد الكوفة، فقام إلى الخليفة علي وضربه بسيف قد سُمَّ حده ، على رأسه [10].

أما الخارجي النزال بن عامر في قول أو الحجاج بن عبد الله التميمي في قول آخر [11] ، فقد أقبل في نفس الليلة إلى دمشق ، وهمّ بقتل معاوية بن أبي سفيان وهو يصلي بالناس في المسجد الأموي صلاة الصبح ولكنه أخفق ، ولم يصب السيف منه مقتلًا ، ومنذ ذلك الحين اتخذت المقاصير في الجوامع ، وجعل الحراس [12] على رؤوس الخلفاء. وتزايدت الأمور سوءًا في العصر الأموي ، فتكررت حوادث انتهاك حرمات ومقدسات بيوت الله ، سواء أكام من قبل الجهات الخلافية الرسمية أم من قبل الخوارج وأتباع العلويين ، ومن ذلك أن الخليفة معاوية أخذ البيعة لولده يزيد في المدينة المنورة 56 هـ / 675 م من المعارضين الأربعة وهم الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الرحمن ابن أبي بكر، وعبد الله بن الزبير [13] وعلى رأس كل منهم حارسان يحمل كل منهما سيفا ، حتى إذا ما اعترض واحد منهم على ما يقوله معاوية بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفيهما . ثم خرج ، وخرجوا معه إلى مسجد المدينة ، وارتقى معاوية المنبر وخطب المسلمين معلنًا موافقة هؤلاء المعارضين على بيعة ولده فبايع الناس أمام سكوت ساداتهم في المسجد ، تحت تهديد السيوف .[14] وفي سنة 63 هـ / 683م مات أبو عقبة مسلم بن عقبة المري في منطقة المشلل ودفن فيها ولكن ما لبث أن نبش قبره وصلب .

ويعد انتهاك قدسية الكعبة رمز الإسلام ، بمثابة العمل الأسوأ على مدى عصور التاريخ الإسلامي كله ، وذلك في عهد يزيد بن معاوية بن أبي سفيان خلال حركة عبد الله بن الزبير ، الذي كان أهل مكة والحجاز كله قد بايعوه ، ولاذ به في مكة الفارون من أهل المدينة الذين كانوا قد طردوا العامل الأموي فاجتاحتهم جيوش يزيد واستباحوا ديارهم بقيادة مسلم بن عقبة ، فلحق أبناء المدينة بعبد الله ابن الزبير ، وتقدمت الجيوش الأموية لمحاصرته في مكة وفي ربيع الأول سنة 64 هـ / 683 م

وأخذوا يرمون بيت الله الحرام بالمجانيق المنصوبة على جبل أبي قبيس ، فتساقطت أحجار المجانيق على الكعبة ، ولم يكتفوا بذلك بل رموا النار والنفط ومشاقات الكتان وغير ذلك من المحرقات على بيت الله الحرام مما هدّم نواحي منه مع الحريق الذي أصابه [15]. وظل جيش الأمويين يحاصر مكة ويرميها بالمجانيق حتى بلغهم نبأ وفاة يزيد بن معاوية ، فتوقفوا عن القتال .[16]

ولم تلبث خروقات حرمات المساجد والجبانات أن تجددت على مدى سنوات العصر الأموي، خلال الصراعات السياسية والمذهبية التي امتلأ بها ، فأصبحت المساجد والمقابر مراكز لتجمع المقاتلين، من ذلك على سبيل المثال ، أحداث حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي، في الكوفة .

وقد أشار الطبري إلى تفاصيل هذه الأحداث المعقدة والمتشابكة ، في أخبار سنة 66 هـ / 685 –686 م عندما وثب المختار فيها للمناداة والمطالبة بدم الحسين بن علي بن أبي طالب ، وقام بإخراج عامل ابن الزبير عبد الله بن مطيع العدوي من الكوفة . وتتوالى الأحداث التي طالعنا في بعض مراحلها مظاهرَ لانتهاك حرمات المساجد ، وأيضًا جبانات وقبور الموتى من المسلمين ، من ذلك عندما قام عبد الله بن مطيع بدعوة أهل الجبابين [17] ، يأمرهم أن ينضموا إلى المسجد الجامع بالكوفة ، وأمر أن ينادي في الناس فمن لم يتوافد إلى المسجد ، فقد برئت ذمته . أما المختار فقد قدّم يزيد بن أنس في موضع مسجد شبث في تسعمائة أمامه .[18]

وكان كل من مسجد الأشعث ومسجد عبد القيس والسكون أيضًا مجالًا لموجات الصراعات المتتالية في هذه الأحداث بالكوفة .[19]

أما الجبانات في هذه المدينة وأهمها جبانة السبيع وأثير وبسر وكنده ، ومراد وبني سلول فكانت مواضعًا للاقتتال ، بين المحاربين في أحداث حركة المختار [20] . وقد شهدت جبانة السبيع سنة 66هـ ، دخول المقاتلين وهم ينادون بثارات الحسين ، استعدادا للقتال فيها ، كما قُتِل أهل اليمن في نفس هذا العام في هذه الجبانة .[21]

وعندما قُتل المختار سنة 67هـ / 686 م ، أمر المصعب بن الزبير بقطع كفه بعد مقتله وتسميرها بمسمار حديد ، إلى جانب المسجد وظلت هكذا حتى جاء الحجاج بن يوسف وأمر بنزعها .[22]

وفي سنة 76 هـ ، خرج شبيب بن يزيد الشيباني الحروري [23] بالعراق يتنقل فيما بين السواد والجبل ثم دخل الكوفة ليلًا ، حتى وقف على باب الحجاج في القصر وضرب بابه بعمود ، وكانت السيدة غزالة زوجة شبيب بصحبته وكذلك السيدة والدته جهيزة ، ثم توجه إلى مسجد الكوفة الجامع ، فقتل من به من الحرس ، كما قتل ميمون مولى حوشب بن يزيد صاحب شرطة الحجاج ، وبعد هذه المقتلة بالجامع ، قام ليصلي بالناس وتلا عليهم سورتي البقرة وآل عمران .[24]

ومن أكثر الانتهاكات التي حدثت في العصر الأموي بشاعة ، بحق المساجد ،كان ما يتعلق بمقتل الجعد بن درهم ، الذي كان شيخًا وأستاذًا لمروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين والذي تلقب بالجعدي نسبة إليه .

والجعد ، هو أول من قال بخلق القرآن الكريم ، واستوحى أفكاره واستقاها عن بيان بن سمعان الذي أخذها عن طالوت ابن أخت لبيد بن أعصم زوج ابنته .

وترجع أصوله إلى خراسان ، ويُقال أنه كان من موالي بني مروان ، وأنه سكن دمشق ، وكانت له بها ، دار بالقرب من القلاسيين إلى جانب الكنيسة واستمر هناك حتى تتبعه الأمويون عندما أظهر أفكاره ، فهرب إلى الكوفة ، وكان ذلك في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك الذي أصدر أوامره إلى خالد القسري أمير العراق بالقبض على الجعد بن درهم وقتله .

واستطاع خالد القسري ، الإمساك به وقام بحبسه ، ولكنه لم يقتله ، مما جعل الخليفة هشام يكتب إليه يلوّمه ويصر على قتله ، فأخرج خالد ، الجعد بن درهم من محبسه ، في وثاقه ، وكان ذلك في يوم الأضحى ، ولما صلّى خالد القسري في

المسجد الجامع بالمصلين وجههم في آخر خطبته ، بالتوجه إلى شؤونهم للتضحية وليتقبل الله منهم ، أما هو فأخبرهم بأنه سوف يضحي بالجعد داخل المسجد لأنه خرج عن الدين ، وقال: إن الله لم يكلم النبي موسى عليه السلام ولم يتخذ أبا الأنبياء خليلًا ، ثم نزل من منبره وقام القسري بنحر ابن درهم داخل المسجد الجامع . وفي سنة 97 هـ قُتِل عبد العزيز بن موسى بن نصير بمسجد رفينة بإشبيلية وهو يقرأ القرآن .[25]

وفي أواخر العصر الأموي أمر الخليفة الأخير مروان بن محمد بنبش قبر الخليفة يزيد الناقص. وفي بدايات العصر العباسي الأول الذي ابتدأ سنة 132هـ / 750 م بتولي أبي العباس السفاح لم يسلم موتى الأمويين في قبورهم من انتهاكات العباسيين ، فلم يكتفِ هؤلاء بالتنكيل بالأحياء منهم ، بل عمدوا إلى التمثيل بجثث الخلفاء المروانيين وإحراقها وهو ما نهى عنه الإسلام ، فنبشوا مقابرهم ، وانتهوا إلى قبر الخليفة هشام فاستخرجوه صحيحًا ، فضربه عبد الله بن علي العباسي ثمانين سوطًا ثم أحرقه ، واستخرجوا الخليفة سليمان من أرض دابق ، فلم يجدوا إلا صلبه وأضلاعه ، ورأسه ، فأحرقوه ، وأيضًا فعلوا ذلك بغيرهما من بني أمية . وكانت قبورهم بقنسرين ، ثم انتهوا إلى دمشق فاستخرجوا الوليد بن عبد الملك فما وجدوا في قبره قليلًا ولا كثيرًا ، واحتفروا عن عبد الملك بن مروان ، فما وجدوا إلا شؤون رأسه ، ثم بحثوا عما تبقى من يزيد بن معاوية فلم يجدوا إلا عظمًا واحدًا ووجدوا في لحده خطًا أسودا كأنه رماد ، ثم تتبعوا قبورهم في جميع البلدان فأحرقوا ما وجدوه منهم .[26]

وفي إفريقية بالمغرب بايع عبد الرحمن بن حبيب ، في سنة 136 هـ ، أبا جعفر المنصور ، الذي أرسل إليه بخلعة سوداء ، ودعاه إلى الطاعة ، فأجابه عبد الرحمن ودعا له وأرسل إليه بهدية من بينها بعض الذهب وبزاة وكلاب ، وكتب إليه يقول بأن إفريقية إسلامية كلها ، وقد انقطع السبي منها والمال وطلب من المنصور ألا يطلب منه مالًا ، فغضب المنصور ، وأرسل إلى عبد الرحمن كتابًا يتهدده فيه ، فلما وصل الكتاب إلى عبد الرحمن قام بجمع الناس إلى الصلاة ثم صعد إلى المنبر وأخذ

يسب أبا جعفر معلنًا انخداعه فيه ولذلك فهو يخلعه مثلما يخلع نعله هذا ، وقام بقذف نعله من قدمه بداخل المسجد ، ثم أعلن خلع السواد .[27]

وعندما اندلعت ثورة البربر في بلاد المغرب دخل بربر ورفجومة القيروان في ذي الحجة سنة 138هـ/ 756م ، فاستحلوا المحارم وارتكبوا الكبائر ، ونزل زعيمهم عاصم بن جميل الذي ادعى الكهانة والسحر ، بمصلى روح . وذكر ابن الأثير أنهم ربطوا دوابهم في جامع القيروان وأفسدوا فيه .

كما ذكر ابن الأثير أن رجلًا من الإباضية ، الذين كان نفوذهم يمتد في إقليم طرابلس وجزء من المغرب الأوسط وكان زعيمهم هو عبد الأعلى بن السمح المعافري ، قد شاهد قومًا من ورفجومة قد أخذوا سيدة قهرًا أمام الناس ، أدخلوها الجامع بالقيروان، فتوجه الإباضي إلى أبي الخطاب عبد الأعلى وهو يقول : بيتك اللهم بيتك . وفر الكثير من أهل القيروان إلى طرابلس ، للاحتماء بالإباضية بعد أن ارتكب الورفجوميون المحرمات واستباحوا الأعراض ودنسوا المساجد . وقد تأثر مسجد القيروان الجامع بأحداث ثورة ورفجومة حتى تولى يزيد بن حاتم فقام على الإصلاحات الداخلية ، واهتم بإعادة تنظيم القيروان وجعل لكل حرفة من الحرف ، سوقًا خاصًا بها ، وجدد بناء المسجد الجامع بالقيروان.[28]

وفي مصر، لم تختلف الأمور في العصر العباسي الأول عما كان عليه الحال في الحجاز والكوفة وإفريقية ، فقد أورد لنا الكندي أخبارًا في أحداث سنة 144هـ/761-762 م ، في ولاية يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة ، ففي ولايته ظهرت دعوة بني حسن بن على في مصر ، وتكلم بها الناس .

وبايع الكثيرون في مصر لعلي بن محمد بن عبد الله بن حسن بن عبد الله بن حسن ، وهو أول علوي قدم إلى مصر . وقام بأمر دعوته ، خالد بن سعيد بن ربيعة بن حبيش الصدفي . وكان جده حبيش من خاصة علي بن أبي طالب ، وكان من أصحابه ،

دحية بن مصعب بن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان ، وكذلك منصور الأشل بن الأصبغ بن عبد العزيز ، وزيد بن الأصبغ بن عبد العزيز .

ويؤكد الكندي أن دحية قد أصدر تعليماته بأن يكون خروجهم في المسجد الجامع . وبالفعل سار خالد بن سعيد وعليه قباء أصفر وعمامة خز صفراء إلى المسجد الجامع في نصف الليل ، وانتهب أتباعه بيت المال ، ودارت الأحداث ، وجرى الاقتتال ، أثناء اعتلاء خالد بن سعيد سطح المسجد ، وتم رشقة من قبل العباسيين بالنشاب وهو فوق المسجد .[29]

ويسوق الكندي خبرًا آخر ، في أحداث سنة 145هـ ، عندما جيء برأس إبراهيم بن عبد الله بن حسن في هذا العام ، فتم نصبه في المسجد الجامع ، وقام الخطباء بذكر أمره .[30]

وفي سنة 169هـ/ 786م عادت أحداث الحجاز إلى البروز من جديد وقد انتُهكت حرمات المسجد النبوي بالمدينة المنورة خلالها ، وذلك عندما ظهر الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن على ابن أبي طالب فيها ، وهو الذي سيُقتل في موقعة فخ عند مكة .

ويفيدنا ابن الأثير، بأن أحداث ثورته قد دارت بالقرب من المسجد النبوي حيث اقتتل أصحابه مع أنصار بني العباس هناك وكان أصحاب الحسين يلتجئون في نهاية كل التحام مع العباسيين إلى المسجد .[31]

وبالعودة إلى إفريقية نجد أنه في أوائل رمضان من سنة 181هـ/797 م ، استعمل الخليفة الرشيد عليها محمد بن مقاتل بن حكيم بعد هرثمة بن أعين ، ولكن محمد ، اقتطع الجند ، وأساء في الرعية الذين اتفقوا على تقديم مخلد بن مرة الأزدي ، فلما علم ابن مقاتل بذلك ، بادر بإنفاذ جيش للقضاء عليه ، وتمكن هذا الجيش من

إلحاق الهزيمة بأنصار مخلد ، الذي اختفى في مسجد ، ولكن جند ابن مقاتل تمكنوا من القبض عليه وقتلوه ذبحًا .[32]

وفي سنة 196هـ تم خلع الأمين في مصر في مسجدها الجامع ، ووثب الجند بجابر بن الأشعث وأخرجوه ، وعينوا عبادًا بن محمد من قبل المأمون على مصر .[33]

التقييم ونتائج الدراسة :

وبعد أن استعرضنا أبرز الأمثلة لانتهاكات المساجد وجبانات وقبور موتى المسلمين ، انتقاما شرقًا وغربًا في العالم الإسلامي خلال القرنين الأول والثاني الهجريين يتبين لنا أن روح العصبية التي حاربها الإسلام كانت لاتزال قائمة ومستمرة . لقد دعا الإسلام إلى جعل المسلمين أمة واحدة ، لا فرق فيها بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى ، فالمؤمنون إخوة تتراص صفوفهم أثناء الصلاة كلهم جنبًا إلى جنب ، لا فرق بين أبيض وأسود ولا سيد ومسود ولا قيسي ولا يمني ولا عربي أو غير عربي .

ولكن روح العصبية القبلية [34] التي عاشتها العرب في الجاهلية ، كانت لاتزال في هذه المرحلة المبكرة من التاريخ الإسلامي ، تحرك العرب .

ويؤكد علماء النفس أن التعصب هو أحد الظواهر الاجتماعية شديدة الخطورة [35] ، لأنه يعبر عن أشكال عدوانية ضد الأفراد والمجتمع . وهو ظاهرة قديمة تجعل الإنسان يرى نفسه وحده على حق .

وكان العرب قبل أن يهتدوا بالإسلام على هذا النحو من الرؤية الأحادية ، وكذلك اتسم غلاة الفرس والخوارج وبعض فئات من الشيعة بهذه السمة ، فالجميع في اعتقاداتهم على باطل، والجميع تسقط قدسيته ومقدساته عقابًا على اختلافه معهم في مذهبهم أو دينهم. وفي تصورنا أن العصبية القبلية ظلت تسود المجتمعات العربية الإسلامية الأولى، وظلت تحرك المسلمين، وكانت الدافع وراء الكثير من الأحداث

السياسية ، مما يؤكد رأينا ما ذكره أحد كبار المؤرخين من أنها كانت أحدى أهم دوافع حركة الردة على سبيل المثال .[36]

وقد شملت العصبية المجتمعات العربية الإسلامية الأولى من أعلاها إلى أدناها ، فالأسرة الأموية الحاكمة على سبيل المثال ، كانت العصبية ، واحدة من أهم سماتها ، فقد تعصب الأمويون للعنصر العربي على حساب الأجناس غير العربية [37] التي انخرطت في الإسلام كالفرس والبربر ، الذين تعصبوا بدورهم لأصولهم وحضاراتهم الأولى واندلعت ثوراتهم ضد العرب في المشرق والمغرب واستمرت هذه الروح في هذه الفترة الزمنية محركًا للأحداث .

ولأن التعصب ظاهرة اجتماعية ، ولأن الظواهر الاجتماعية بطيئة في تغيرها وتطورها ، لذلك ، فإن زوال هذه السمة التي اتسم بها بعض المسلمين في هذه المرحلة المبكرة من التاريخ الإسلامي ، قد استمرت على مدى هذين القرنين ، اللذين شهدا انعكاسات هذه الروح في مناحي الحياة كافة ، وكانت المساجد والجبانات من ضحايا هذه العصبية .

ولكن شيئا فشيئًا، ومع بدايات امتزاج العرب الفاتحين بأبناء البلاد المفتوحة ومع تقدم حركة الترجمة، وبداية تطور الفكر العربي بعد احتكاكه بأصحاب الحضارات السابقة ممن أقبلوا على الإسلام فإن هذه العصبية أخذت تتلاشى تدريجيًا ، وبدأت مظاهر الحضارة الإسلامية في التبلور وبدأ جوهر الإسلام وبدأت تعاليمه ومبادؤه في فرض نفسها على العقلية الجاهلية الأولى .

ورغم شيوع روح العصبية في هذه المرحلة الزمنية موضوع الدراسة فإن انتهاكات حرمات المساجد والجبانات في القرنين الأول والثاني الهجريين ظلت أحداثًا استثنائية قليلة ونادرة الحدوث لتعارضها مع قيم الإسلام ، ولا يمكن أن تشكل ظاهرة ، ولم يمارسها إلا القلائل من المتعصبين خلال صراعاتهم السياسية والمذهبية .

وتؤكد المسارات التاريخية الإسلامية في القرون التالية أن المسلمين حكامًا ومحكومين في جميع أرجاء وأنحاء العالم الإسلامي شرقًا وغربًا ، قد حرصوا على احترام المساجد وعلى القيام بالتجديدات المتواصلة والزيادات في المساجد الجامعة المختلفة ، وتطوير مهامها فأصبحت المساجد تحتوي على قاعات العلم وأنشئت دور الحكمة [38] في المدن الإسلامية ، ولعل الجامع الأزهر بالقاهرة الذي كان بمثابة جامعة علمية يتوافد إليها طلاب العلم من جميع أنحاء العالم الإسلامي ، في العصر الفاطمي ، للتتلمذ [39] على يد شيوخه الذين أجريت لهم الرواتب ، خير مثال على ذلك . وفي العصر المملوكي ، تحول الجامع الأزهر إلى أكبر جامعة سنية بالعالم الإسلامي . لقد كان المولى شمس الدين محمد بن حمزة الفناري [40] ، أول شيخ إسلام بالدولة العثمانية [41] على سبيل المثال من الوافدين على القاهرة والأزهر لتلقي العلم على علمائه والتتلمذ على يديهم ، وكان الكوراني أيضًا نزيل مصر [42] ودرس بالأزهر ، وهو أحد أبرز علماء ومفتيين الدولة العثمانية ، التي تميزت مساجدها الجامعة بدورها بأنها بمثابة (كليات) حتى أن كل جامع منها سمي في الدراسات التاريخية الحديثة بالكلية (كليت) لأنه كان بمثابة جامع وجامعة وبيمارستان وعمارة وحمام ، وعرفت مدينة بروسة وحدها في الدولة العثمانية بكلياتها الخمسة في بداياتها الأولى في القرنين الثامن والتاسع الهجريين ، كأنموذج حي على قيمة وحرمة المساجد في الإسلام .[43]

أما جامع قرطبة فقد كان بمثابة الجامعة العلمية التي استقبلت علماء المشرق والمغرب وأوروبا على السواء وكان مجالًا لدراسات علمية قيمة مثل ما قدمه الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم في كتاباته المختلفة .[44]

واختتم دراستي الموجزة هذه بما قام به السلطان المملوكي المؤيد شيخ المحمودي (815-824هـ / 1412-1421م) عندما لاحظ أن الجامع الأزهر لم يعد مكانًا للعلم والجامعة العلمية المشهورة كسابق عهده، بحجة التبرك، ما بين تاجر وفقيه وجندي خاصة في فصل الصيف، وأصبح صحنه يمتلئ بهؤلاء الذين يفعلون بأروقة الجامع مالا يليق بمهابته، من محرمات، فأمر السلطان بتعيين الفقيه الخواجا

شمس الدين محمد الماحوزي للإشراف على الأزهر بدلًا من الأمير سودون القاضي حاجب الحجاب، ويتميز الماحوزي بالحزم، فأزال كل ما سبق ذكره ومنع إقامة هؤلاء بالمسجد وأعاد له هيبته كأكبر جامعة علمية في مصر والعالم الإسلامي . [45]

وفيما يتعلق بنبش القبور وانتهاك حرمات الموتى ، فقد طالعنا بعض الحوادث الفردية على مدى عصر الخلافة العباسية إما انتقامًا أو لأغراض أخرى كانت مجالًا لدراسة قيمة للدكتور خالد الجبالي بكلية التربية بجامعة جازان ، تعرض خلالها لهذه الأفعال التي ظلت قليلة ونادرة في عموم مسيرة الحضارة الإسلامية ، شارحًا دوافها وأسبابها .[46]

الحواشي:

[1]– ابن هشام ، كتاب سيرة النبي ، تحقيق الأساتذة مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري و عبد الحفيظ شلبي ، طبعة القاهرة ، ج2 ، ص 404 ؛ اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ليدن ، 1883 م ، ص 60 ؛ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية ، طبعة الإسكندرية ، 2002 م ، ص 130 .

[2]– منصور على عرابي ، قصص آداب المسجد ، منبر التوحيد والجهاد ، سلسلة الآداب ، ص 2–6 .

[3]– القرآن الكريم ، سورة الأعراف ، آية 31 .

[*] أحمد بن حنبل ، المسند ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، 2001 ، ج40 ، حديث رقم 124308 ، ص 354 .

وعن عدم جواز نبش قبور الموتى من المسلمين إلا للضرورات التي أباحها الإسلام وحديث النبي عن ذلك ارجع إلى :

(السيواسي ، شرح فتح القدير ، دار الفكر ، بيروت ، ط1 ، ج5 ، ص 113 ؛ المرغياني ، الهداية شرح البداية ، المكتبة الإسلامية ، ج2 ، ص 121 ؛ البيهقي ، السنن الصغرى للبيهقي ، مكتبة الرشد ، الرياض ، 1422 ، ج7 ، ص 201 .

وقد قدم الدكتور خالد الجبالي بحثًا قيمًا عن الجذور التاريخية لظاهرة نبش القبور في الإسلام حتى نهاية الخلافة العباسية (658 هـ –1258م) ، ؛ المجلة العلمية بكلية الآداب ، جامعة طنطا ، عدد21 ، 2008 ، ص 1221 .

[4]– راجع موسوعة الدكتور عبد الوهاب المسيري عن اليهود واليهودية والصهونية ، 8 أجزاء ، طبعة دار الشروق مصر ، 1999 .

[5] – قاسم عبده قاسم ، الخليفة الأيديولوجية للحروب الصليبية ، دار المعارف ، 1983 م ، ص 12–30 .

[6]– كان أبو لؤلؤة مجوسًيا من أهل نهاوند ، اتخذه المغيرة بن شعبة غلامًا له ، وكان نقاشًا نجارًا حدادًا ، كمن للخليفة عمر في زاوية من زوايا المسجد النبوي (المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، بيروت ، دار الفكر ، 1973 م ، ج2 ، ص 329 . وذكر كل من الطبري وابن الأثير أن أبا لؤلؤة كان نصرانيًا وقد أورد الدكتور السيد عبد العزيز سالم مختلف الآراء التي جاءت في المصادر العربية بشأن أبي لؤلؤة ولمزيد التفاصيل ارجع إلى كتابه القيم ، تاريخ الدولة العربية ، الفصل الخامس ، ص 273 وما يليها) .

[7]– اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص 183 .

[8]– نفسه ، ص 252 .

[9]– المسعودي ، مروج الذهب ، ج2 ، ص 424 .

[10] – وعن أسماء الخوارج الثلاثة الذين كلفوا بقتل كل من الخليفة على بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص واختلاف المصادر حول أسمائهم وشخصياتهم كالطبري وابن قتيبة وابن الأثير ، راجع ما أورده الدكتور السيد عبد العزيز سالم في هذا الشأن في كتابه تاريخ الدولة العربية ، ص 335 وما يليها .

[11]– المرجع السابق ، ص 336 .

[12]– أبو حنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال ، تحقيق الأستاذ عبد المنعم عامر ، القاهرة ، 1961 ، ص 215 ؛ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية ، ص 336 .

[13]– اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص 271 .

[14] – ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، طبعة بيروت ، 1965م ، أحداث سنة 56هـ ؛ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية ، ص 213 .

[15] – اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص300 ؛ ابن الأثير ، الكامل ، أحداث سنة 64هـ ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية ، ص 388 وما يليها – وعن نبش قبر مسلم بن عقبة ارجع إلى ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، القسم المتمم لتابعي أهل المدينة ، تحقيق زياد محمد ، المدينة المنورة، 1408 ، ط2 ، ج1 ، ص 105 .

[16] – المرجع السابق ، ص 388 .

[17] – الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، مصر ، 1964م ، ج6 ، ص23 .

[18] – المصدر السابق ، ص 24 .

[19] – نفسه ، ص 24 ، وما يليها .

[20] – نفسه ، ص 45 وما يليها .

كانت إحدى الصفات المميزة لطبوغرافية الكوفة ، جباناتها أي مقابر العشائر والبطون . وكانت الجبانات تقع في خطط القبائل وأهمها جبانة كندة التي كانت فسيحة وواسعة ليس فيها بناء أو عمارة، وكانت تصلح للحشر والتجمع العسكري وغيرها من الاجتماعات العامة . وكانت جبانة عرزم الفزاري أيضًا من أهم الجبانات وهي لبني عبس . وكان عرزم هذا الذي سميت باسمه الجبانة رجلًا يصنع اللبن ويجففه تحت الشمس .

وهناك أيضًا جبانة الأزد ، وجبانة سليم السلولي (بطن من بني عامر من قيس) وجبانة مراد والصائديين وهم (بطن من أسد) وجبانة السبيع أو الحشاشين وجبانة صحراء سليم ولمزيد من التفاصيل عن جبانات مدينة الكوفة ، ارجع إلى (لويس مايسينون ، خطط الكوفة وشرح خريطتها ، ترجمة تقي بن محمد المصعبي ، كربلاء ، 1939م ، ص 33 ، 34)

[21] – الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج6 ، ص 50 .

[22] – المصدر السابق ، ص 110 .

[23] – نفسه ، ص 224 وما يليها .

[24] – اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص 327 ، 328 .

[25] – بخلاف ، مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين الذي تعلم منه ، أيضًا تعلم جهم بن صفوان الذي يُنسَب إليه الجهمية ، من الجعد . وقيل أيضًا في بعض الآراء أن الجعد بن درهم قد قتل بالصلب وليس بالنحر . ولمزيد من التفاصيل عن جعد بن درهم ارجع إلى : السمعاني ، الأنساب ، مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، طبعة 1962م ، ج3 ، ص287، 288، 353، 438 ؛ بن الأثير ، الكامل في التاريخ ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري ، بيروت ، 1997 ، ج4 ، ص283 ، 284 ، وأيضًا ابن الأثير ، اللباب في تهذيب الأنساب ، دار صادر ، بيروت ، 1980م ، ج2 ، ص 282 ، 283 ، 317 ؛ سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان ، دار الرسالة العالمية ، دمشق ، 2013 ، ج11 ، ص 270–271 ؛ أبو الفدا بن كثير ، البداية والنهاية ، دار الفكر ، 1986م ، ج9 ، ص 350 .

وعن مقتل عبد العزيز بن موسى بمسجد إشبيلية ارجع إلى : ابن عذاري ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، طبعة بيروت ، 1965 ، ص22–30، أحداث عهد عبد العزيز بن موسى .

[26] – عن نبش مروان بن محمد ، قبر يزيد الناقص ، ارجع إلى السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، دار ابن حزم ، 2003 ، ص 203 .

وعن انتهاكات العباسيين لقبور خلفاء الأمويين ارجع إلى اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص 427 ، 428 ؛ السيد عبد العزيز سالم ، العصر العباسي الأول ، الاسكندرية ، 2010 م ، ص59 .

[27] – ابن عذاري ، البيان المغرب في أخبار المغرب ، أحداث سنة 136 هـ ؛ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ، الاسكندرية ، 2011م ، ص246 .

[28] – لمزيد من التفاصيل ارجع إلى ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، أحداث سنة 138هـ ؛ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب ، ص 254 وما يليها .

[29] – الكندي ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، تهذيب وتصحيح رفن كست ، بيروت ، 1908 ، ص111 .

[30] – المصدر السابق ، ص 114 .

[31] – ابن الأثير ، الكامل ، طبعة بيروت ، 1965م ، ج6 ، ص91 .

[32] – المصدر السابق ، ص 154 ؛ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب ، ص277 .

[33] – الكندي ، كتاب الولاة ، ص148 ، 149 ، أحداث سنة 196 .

[34] – السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية ، ص 13 .

[35] – عن التعصب ارجع إلى (أندرية هاينال ، سيكولوجية التعصب ، طبعة دار الساقي ، 1990 ، المقدمة والفصل الأول ، سعيد على عبيد ، فلسفة القيم عند جورج سانتيانا ، دار نيوبوك للنشر والتوزيع ، 2017م)

[36] – السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية ، ص 167 – 170 .

[37] – لمزيد من التفاصيل عن انحراف بعض الخلفاء وولاة الأمويين عن مبادئ الإسلام في التكافل الاجتماعي والعدالة والمساواة بين العرب وأبناء البلاد المفتوحة من البربر والفرس مما أدى إلى بداية ظهور الشعوبية ، ارجع إلى (السيد عبد العزيز سالم ، العصر العباسي الأول ، ص 34 وما يليها)

[38] – عن دور الحكمة والعلم المختلفة في العالم الإسلامي شرقًا وغربًا ارجع إلى السيد عبد العزيز سالم ، مجامع علمية إسلامية ومكتبات على غرار مكتبة الإسكندرية أحد مقالات كتاب بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة والآثار ، طبعة دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1991م ، ج1 ، ص 351 وما يليها .

[39] – لمزيد من التفاصيل ارجع إلى : المقريزي ، الخطط المقريزية ، نشر دار العرفان ، لبنان ، ج3 ، ص229– 235 .

[40] – شمس الدين محمد بن حمزة الفناري ، من علماء دولة السلطان بايزيد (792–805 هـ / 1390–1402م) ابن السلطان مراد (761 –792هـ / 1361– 1390م) وهو الملقب بالصاعقة أو يلدريم .

تلقب شمس الدين بالفناري نسبة إلى صنعة الفنار في قول ، وإلى قرية سميت بالفنار في قول آخر . وولد سنة 751هـ وكان عارفًا بالعلوم العربية وعلم المعاني والبيان وعلم القراءات ، وكثير الاهتمام بالفنون ، رحل إلى مصر ودخل القاهرة زمن السلطان المؤيد شيخ (815–824هـ / 1412–1421م) واجتمع بعلمائها وأهمهم ابن حجر العسقلاني ثم عاد إلى بلاده ، وتولى قضاء بروسا ،

والأهم أنه كان أول شيخ من شيوخ الإسلام بالدولة العثمانية طبقًا لمعظم الآراء التاريخية . وقد كوّن أسرة علمية كبيرة ، فقد عمل أبناؤه وأحفاده في كافة العلوم . وتوفى سنة 834هـ / 1431م .
لمزيد من التفاصيل ارجع إلى :
طاشكپري زادة ، الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1975م ، ص 17 وما يليها .

[41] – كان لشيخ الإسلام في الدولة العثمانية الكلمة الفاصلة في القضايا الدينية والحقوقية ، كما كانت القضايا الدنيوية تحتاج إلى فتواه ، في إعلان الحرب وكذلك في الإصلاحات والتغييرات الإدارية ، كما كان من خلال فتواه يقرر ما إذا كانت انتفاضة ما ، شرعية أم باطلة ، وإذا ما كانت المطالبة بالعرش صحيحة أم غير شرعية (ولمزيد من التفاصيل ارجع إلى : أكرم كيدو ، مؤسسة شيخ الإسلام في الدولة العثمانية ، ترجمة د. هاشم الأيوبي ، طرابلس ، لبنان ، 1992م ، ص7 ، 18 .
وكان شيخ الإسلام يحتل المكانة الثانية بعد الصدر الأعظم (الدولة العثمانية ، تاريخ وحضارة ، إشراف وتقديم أكمل الدين إحسان أوغلى ، ترجمة صالح سعداوي ، استانبول ، 1999م ، ج1 ، ص302، 303 .
ويعدُّ الرأي الذي أورده طاشكپري زادة في كتابه الشقائق النعمانية بخصوص كون شمس الفناري هو أول شيوخ الإسلام بالدولة العثمانية هو الرأي المتفق عليه بين أغلب الباحثين وإن كانت هناك قلة من المؤرخين ترى أن هذا المنصب قد يكون قد نشأ قبل ذلك .(أكرم كيدو ، المرجع السابق ، ص27) .

[42] – شهاب الدين أحمد بن إسماعيل بن عثمان الكوراني الشافعي ثم الحنفي مفتي الدولة العثمانية المتوفي سنة 893هـ الذي قدم إلى القاهرة من بلاده وأجازه ابن حجر العسقلاني ، ومنها انتقل إلى الدولة العثمانية حيث تولى التدريس في بروسا ، وأصبح معلمًا للسلطان محمد الفاتح (855 –866هـ / 1451– 1481م) .
ولمزيد من التفاصيل عنه ارجع إلى : طاشكپري زادة ، الشقائق النعمانية ، ص 51–52 ؛ حاجي خليفة ، الأعلام العثمانيون ، مختارات من كتاب سلم الوصول إلى طبقات الفحول ، تحرير وإعداد ، د. أحمد عبد الوهاب الشرقاوي ، 2019م ، ص85 ، محمد أنس سارميني ، محمد صديق ، اتجاهات مدارس التفسير العثمانية في مقاربة السنة وعلوم الرواية ، البورصوي ت: 1127هـ ، والكوراني ت: 893هـ – أنموذجًا ، 2020) .

[43] – تمتعت مدينة بروسا بظهور ما يعرف" بالمجمعّات " أو الكلية – الكليت وهى تعني الجامع الذي كان يضم أيضًا مدرسة وحمام وخان وعمارة (مطبخ) وحجرات لإقامة المدرسين تتمثل في " مجمع أورخان (726–761هـ / 1326 – 1361م) ومجمع " مراد الأول (761–792هـ / 1361–1390م)" ومجمع " بايزيد الأول (792–805هـ / 1390–1403م) " ومجمع " محمد الأول (816–824هـ / 1413–1421م) " ومجمع " مراد الثاني (824–855هـ / 1421–1451م) " وقد كانت هذه المجمعات مجالًا لدراسات قيمة عديدة قامت بها المدرسة الآثارية بجامعة Uludag ببورصة (بروسا)

ولمزيد من التفاصيل إرجع إلى :

Selen Durak, Tulin Arslan , Ipek Fetullahoglug H. Ceren Saglik , Reading the transformation of Ottoman Complexes in urban and architectural scale since 19 th century , European Journal of Sustainable development , Bursa 2017 , p 491–498 .

[44] – أهمها كتاب : السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة ، طبعة مؤسسة شباب الجامعة ، 1984 م .

[45] – المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق د. سعيد عاشور ، القاهرة ، 1972م ، ق1 ، ص 324 .

[46] – راجع ما ورد في هذه الدراسة القيمة للدكتور خالد الجبالي ، من ص 1221 –1222 .